تيهرت الرستمية والخلو الأدبي

د. فتحي محمد

تأسيس تيهرت

يعزى قيام الدولة الرستمية إلى مؤسسها عبد الرحمن بن رستم فارسي الأصل، قيرواني النشأة والدار، تلقى تعليمه على يد الشيخ أبي مسلمة بن سعيد الداعية إلى المذهب الأباضي بالفتح أو الكسر، في القيروان والمنشق عن الدولة العباسية، ولكن كيف تمكن هذا الفارسي الغريب عن الديار من إنشاء دولة خارجية في المغرب الأوسط- الجزائر-؟

أظهر عبد الرحمن شغفه بالمذهب الإباضي الخارجي وبزَّ أقرانه في طلب العلم وتحصيله في حلقة شيخه أبي سلمة، فأوفده ضمن البعثة العلمية التي اصطفى أعضاءها من مختلف جهات المغرب العربي، إلى مدينة البصرة للإعداد والتكوين العلمي وأخذ أصول المذهب من مصدره، فأقبل هؤلاء الطلبة على حلقة الشيخ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أحد مرجعيات الإباضية وشيوخها الأوائل في العراق، إدراكاً لأهمية العلم في بناء الملك وترسيخ دعائمه.

لا يستقيم الملك في المفهوم الخلدوني إلا بعصبية مشفوعة بصبغة دينية، ولن يستفحل أمر السلطان وتعظم مراتبه إلا بإيلائه العلم العناية

المستحقة بالبذل والعطاء، فأعدَّ الإباضية طلبتهم إعداداً علمياً وسياسياً لتولي نشر مذهبهم في المغرب الكبير، تهيئة للثورة على الخلافة العباسية والانشقاق عنها والإعلان عن ميلاد دولتهم في المغرب الأدنى وفق أسس علمية مدروسة وخطة ممنهجة ومحكمة.

تولت هذه الوفادة العلمية بعد عودتها من البصرة النشاط الدعائي والإعداد الحربي تهيئة لنفوس البربر الثائرة على العصبية العربية الماثلة في بني العباس وعمالهم في المغرب العربي ، للثورة عليها لاستئثارها بالحكم المحصور في النسب القرشي، فأيقن البربر أن خلاصهم في تبني المذهب الإباضي روحياً وسياسياً ، حينها شعرت الخلافة العباسية بالخطر على كيانها في المغرب العربي، فأجهزت على هذه الفرقة في طرابلس والقيروان وفرقت شملهم دون أن تجهض بيضتهم أو تخضد شوكتهم ، في ظل هذه الأوضاع المتردية يمم عبد الرحمن بن رستم وجهه شطر المغرب الأوسط، فاجتمعت إليه قبيلة لماية البربرية لقديم حلف بينه وبينهم ولاقتناعها بالمذهب شريعة ومنهاجاً ، فبايعته إماماً سنة أربع وأربعين ومائة ه، وشرعوا في بناء مدينة تيهرت لتكون عاصمة ملكهم ، فكان ابن رستم مؤسساً لأول دولة جزائرية في تاريخها، فشمل نفوذها جميع التراب الجزائري الحاضر باستثناء إقليم الزاب شرقاً وتلمسان غرباً وامتد هذا النفوذ إلى ورجلان (ورغلة) في الصحراء جنوباً وطرابلس الغرب شرقاً.

المهادنة والخلق الأدبي.

اتخذ الرستميون المهادنة سبيلا للمعايشة مع دول الجوار ومسالمتها ، فوثقوا معها عرى الصداقة وانفتحوا على حواضرها الثقافية والأدبية كالقيْروان وفاس وقرطبة ، والتي كانت تعد من كبريات الحواضر بعد القسطنطينية مهد الحضارة السامية وموطن الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون والآداب ، ومما عزز الترابط الثقافي والأدبي بين الجزائر الرستمية والأندلس وجود جالية في البلدين لاشتراكهما في معاداة بني العباس ، على الرغم من اختلافهما الفكري والمذهبي، ولشدة وثوق هذه العلاقة فقد ظهرت تيهرت وكأنها تدور في الفلك الأموي ، فكان لهذا التقارب أثره المحمود في نهضة الرستميين الثقافية والأدبية.

إن وقوع مصر على التخوم الشرقية للجزائر الرستمية يسّر لها سبل الاتصال بالمشرق العربي والتواصل مع المرجعية المذهبية في البصرة وعُمان ، فضلا عن مشايخ المذهب في مكة والمدينة ، دأب هؤلاء المشارقة على تدعيم الدولة الناشئة مادياً وأدبياً ، كما حرس الجزائريون على إنفاذ البعوث الطلابية للدراسة والاستنارة بخبرة المشيخة الأم في المشرق العربي [1] والتزود من مضانها المعرفية .

شكلت هذه الحواضر العلمية ، المرجعية المعرفية لعاصمة الرستميين التي لم تصبح معزولة في نطاقها الجغرافي، فحدودها

متداخلة مع الدويلات المغربية كل منها امتداد للآخر، ويكملها في الدم والجوار الجناح الشرقي للأمة العربية والإسلامية ، فكانت هذه المراكز أداة خلق حضاري وأدبي ووعاء فكريا مشتركا تفاعلت فيه عقول أبناء الأمة العربية مغرباً ومشرقاً أخذاً وعطاءا ، مكنت الأدباء والشعراء على التكوين العلمي المشترك ، فلا اختلاف بين أبناء هذه الحواضر في الخلق والإبداع ، الذي لم يخص الله به أمة دون أخرى ولم يقصره على صقع دون غيره ، فهو خاضع لمقتضيات العقل الذي تنموا ملكاته وتتطور بالمران والدربة والمخزون الثقافي وسعة الخيال لا على البيئة أو الجنس وحدهما في منظور **hyppolyte taine**، ومما عزز هذا التشارك في الحياة الثقافية والأدبية ثبات الأمة في أرومتها وفي انتمائها الحضاري المشترك مع الاحتفاظ بالاختلافات السياسية والتوجهات الدينية للدويلات المغربية الثلاث .

استمر تنقل أهل الفكر والأدب وطلاب العلم بين الحواضر الثقافية الكبرى في العالم العربي والإسلامي شرقه وغربه قائماً على حرية الحركة، فتداخلت مواطن إقامة طلاب العلم وامتزجت مشيختهم أو أستاذيتهم في مشيخة واحدة تأثراً وتأثيراً ، لتوافد الأدباء والشعراء وأهل العلم بمختلف اهتماماتهم على الحواضر الكبرى التي كانت محط الرجال ومبلغ الآمال للتزود من فيضها والالتقاء بعلمائها ، فكان ذلك

مدعاة لتقارب النتاج الثقافي والأدبي في ربوع العالم العربي ، فجاءت نصوص الأدب العربي نظماً ونثراً وقتئذ في نسيج واحد غير متمايزة في مبناها العام سواء قيلت في فاس أو القيروان أو تيهرت أو غيرها، فكان لهذا التمازج الاجتماعي فعله المحمود في نهضة الرستميين الفكرية والأدبية لاتصالهم بأرقى مراكز الحضارة العربية والتفاعل معها في إطار المشيخة المشتركة.

ومن جهة مماثلة حرست المشيخة الأم في المشرق على بقاء الدولة الناشئة قوية في المغرب الأوسط مما حتم عليها رعايتها ودعمها مادياً وأدبياً ولاستمراريتها كلفوا أنفسهم عناء نسخ آلاف التآليف والتصانيف لتزويد المكتبة المعصومة بتاهرت [2]، فلا غرو أن هذه الجهود أثرت المكتبة الجزائرية بمختلف المصنفات التي أقبل طلاب العلم على دراستها ومدارستها والنهل من فيوضاتها المعرفية ، فكان لها إشعاعها الفاعل في الحراك الفكري والثقافي والأدبي في الساحة المغربية ككل ،كما أوفدت هذه المرجعية البعثات العلمية والأدبية لتفقد أحوال رعاياها وتنوريهم بالتدريس في مساجد تيهرت وغيرها من الحواضر.

عملت هذه العلاقات من تيهرت الجسر الواصل بين المغرب الإسلامي ومشرقه، مستقطبة أنظار الأدباء والشعراء وأهل الفكر الذين توافدوا على الجزائر من كل الأصقاع شرقاً وغرباً، وذلك في ظل تنامي وشائج العقيدة الواحدة وفي ظل غياب

معيقات ومثبطات تنقل الأعلام بين الحواضر العلمية، عاش أسلافنا كأنهم في أسرة واحدة فلا فرق بين مشرقي أو مغربي تجمعهم وحدة اللغة والعقيدة، وما أحرى بأصحاب الشأن اليوم أن يمتثلوا هذا السلوك الحضاري في حياة شعوبهم فإنه أساس نمائها ومدعاة تطورها وأداة ازدهار فنونها وعلومها وآدابها.

ومما عزز هذا التوجه أن تيهرت بنظامها الجديد أضحت ملاذاً لكل من ضاقت نفسه من عسف بني العباس ، أو رغب في العيش في كنف هذه الدولة التي أضحت خليطاً بشرياً فامتزجت شعوبها واستوت على جودها بثقافتها وحضارتها ، فأثمرت وأينعت تجارتها ولعلها كانت عاملا مساعداً في جذب مختلف الأجناس والمذاهب إلى تيهرت التي اتسع عمرانها وارتقت فنونها وآدابها ، فكانت مقصد الرحلات وملتقى الهجرات ومعبر التجار حتى لا نرى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي [3]، مما يوحي بحضور العنصر العربي بكثافة وفاعلية في هذه الدولة ، وبالمقابل بلغت العناصر الفارسية شأواً كبيراً في هذا المجتمع الناشئ لكون الأئمة من أصل فارسي.

التعليم:

عملت هذه الدولة الناشئة على نشر العلم وترغيب الأجيال في طلبه وتحصيله باعتباره النواة الأولى في بناء الأمة، والأداة الفاعلة في خلق مجتمع متماسك لغوياً ومتقارب فكرياً،

ومما أعان على انتشار العلم وذيوعه في أوساط الناشئة شغف أولي الأمر به، مما أكسب اللغة العربية عنصر القوة والمناعة والنفوذ إلى قلوب الناس، لغناها اللفظي وبيانها السحري فهي لغة الدين ولسان الدولة الرسمي.

وإلى جانب اللغة العربية عاشت البربرية عيشة العامية مع الفصحى اليوم [4] فبها نظمت الأشعار ودونت الكتب ، وإليها ترجمت كتب العلم والدين والدواوين أيضاً وكذلك القرآن الكريم حرصاً من الدولة على تبليغ توجهها المذهبي إلى رعاياها في القرى والأماكن البربرية النائية الذين لم يجر لسانهم على اللغة العربية بعد وتثقيفهم بلغتهم الأم ، فقد ترجم أبو سهل الفارسي اثنا عشر كتاباً وعظاً وتذكيراً وتخويفاً باللغة البربرية [5] ، والتي انتعشت في ظل الرستميين ولا لسان هؤلاء يلهج بهذه اللغة إلى اليوم ، وبمرور الزمن تأثرت البربرية بما كان يجاورها من اللغات الراقية ، فكان لها آدابها وبلاغتها قبل الإسلام وبعده في مختلف المجالات ، فقبل الرومان كان عندنا أدب ليبي (بربري) باللغة البونيقية (الفينيقية) ، وفي عهد الرومانيين وجد عندنا أدب ليبي باللغة اللاتينية [6] ، وفي العهد العربي صار عندنا أدب جزائري بلسان عربي مبين ، دون إغفال أو تغافل نظيره البربري في مختلف الأغراض والفنون.

الأدب قبل الفتح الإسلامي:

لم تكن بلاد المغرب العربي ومنها الجزائر ، أرض يباب بلا علم ولا أدب ، وأن سكانها لا صلة لهم بالعلم ، فعلى الرغم

من محدودية انتشار التعليم إلا أنه كان إجبارياً في العهد الروماني وباللغة اليونانية واللاتينية والبونيقية في بعض المدارس والتي كانت أبوابها مفتوحة للجميع ، في الحواضر الكبرى ... مثل قرطاج وقرطة قسنطينة) وشرشال ومادراوش ، حرصاً من الرومان على نشر لغتهم في كل الفئات ، وهذا شأن كل محتل يجتهد في بث لغته في الناشئة ، فكانت تقيم الاحتفالات لتمجيد الناجحين ، الذين أصبحوا من النحاة (اللغويين) البارزين أو من فطاحل علماء البيان وكان ـ الملوك ـ ينتدبونهم لمراتب الشرف ويقيمون لهم التماثيل ويسجلون ما أحرزوا عليه من نجاح مدرسي وفوز أدبي [7] لا فت .

إنه لمظهر جلي ودليل قوي على نشاط الحركة التعليمية التي كانت عليها بلادنا يومئذ وبفضل هذا التنظيم الذي لم يحظ به شعبنا مع الغزاة الموالين ، تبوأت الجزائر المكانة الرفيعة ، فحق لها الافتخار بأدبائها ومفكريها وفلاسفتها ، منهم القديس أوغستينوس (**saint augustin**) الذائع الصيت الذي عدَّ من رواد الفكر في الجزائر وأحد أفذاذها في العهد القديم ، فأهّل الجزائر لتكون محجة الطلاب وقتئذ من بقاع شتى ، وكذلك الكاتب أبوليوس (**apulée**) المولود بمداوروش (**madauros**) والخطيب البليغ الذرب اللسان في إيجاد الأفكار وابتكار المعاني، فمن أشهر كتاباته القصة الفلسفية الشهيرة ، الحمار الذهبي (**l'ane d'or**) أو المسوخ فهي في أحد عشرة جزءاً، صور

فيها الحياة المغربية تصويراً واقعياً [8] .كما نلفي يوبا الثاني ملك القيصرية (شرشال) في القرن الثاني للميلاد ،الذي جلب إلى مملكته من مصر واليونان الكتَّاب والفنانين والشعراء والفلاسفة، إدراكاً منه لأهمية هؤلاء في بناء الملك وتدعيمه بذوي العقل والنباهة.

مما أهل الجزائر في العهد القديم لتكون أرضاً خصبة ومنبتاً لإنجاب جهابذة العلماء وكبار الأدباء والشعراء، فلا ينبغي إهمال جهود السابقين لما لهم من فضل وطول في تمهيد الطريق للأجيال اللاحقة، فالحياة الأدبية لم تأت طفرة أو عفواً ولم تنبت دون جذور في كل الأمم، وإنما تأتي نتيجة اتصال أمة لاحقة بأخرى سابقة تقتبس الثانية ما عند الأولى، فهذا أمر لازم في حركية الثقافات والحضارات.

الأدب العربي في ظل الفتح الإسلامي.

وجد عرب الفتح الأرضية الثقافية مهيأة لامتزاج العرب بالبربر ، فقد كان من السهل على هؤلاء تبني ثقافة العرب ولغتهم لقربها من اللغة الفنيقية ، فأنبتوا ثقافة جزائرية خصبة متماهية مع جذورها القديمة في مجالات الفكر والأدب ، يذكر عبد الملك مرتاض في السياق ذاته أنه كان في الجزائر شعراء برابرة مفلقين على ذلك العهد، إلا أن كثيراً من شعرهم أو كله تعرض للانقراض بسبب عدم تدوين هذه الأشعار في الكتب، أو تعرضت للإحراق

والإتلاف بقصد أو بدونه في الحروب التي ألمت بالمنطقة ،كإقبال الفاطميين على حرق مكتبة (المعصومة) لاستحكام الخلاف بين المذهبين الشيعي والإباضي، ومن ثم فإن ضياع هذه الكنوز المعرفية قد فوت علينا معرفة الشيء الكثير عن ثقافتنا وآدابنا وتموجات الحراك الفكري في تلك المرحلة من بناء المجتمع الجزائري .

تشير هذه الإماءة إلى وجود أدب جزائري قديم ولو على ضآلته قبل ظهور الدولة الرستمية وأن الأدب الجزائري غير منبت الجذور ، أو حاملا دون إحساس بالعار لعلامات اليتم [9]، إذ لا توجد أمة دون أدب أو شعر مهما تقدمت بها السنون أو ترامت بها المواطن ، فطبائع البشر واحدة على اختلاف خلائقهم ومواهبهم التي تذروها الريح أنى شاءت وكيف شاءت.

كان للرستميين الفضل الأوفى في ترسيخ لغة الضاد ونشرها في المغرب الأوسط، والأثر المحمود في سرعة استعراب أهله وطبع ثقافتهم بالطابع العربي الأصيل، لأن هذه الدولة كانت تسعى إلى إرساء دعائم التربية والتعليم من أجل نهضة فكرية وأدبية تعزز حضورها السياسي المتميز واستقلالها في المغرب الأوسط.

مؤسسة المسجد التعليمية.

يعتبر المسجد أهم مؤسسة تعليمية وتربوية بكل فروعها في مسار التاريخ الإسلامي على الإطلاق، فلم يكن مجرد مكان للعبادة بل هو مجمع لإلقاء المحاضرات والدروس وإيواء

الطلاب والأساتذة المغتربين، فكان المسجد يؤدي رسالة ثقافية وأدبية فضلا عن رسالته الدينية فهي مؤسسات تعليمية وتربوية بامتياز وهي في منزلة الثانويات أو الكليات اليوم.

تولى علماء المذهب الإباضي وأساطين اللغة العربية وعلومها من المشرق العربي على الدولة الناشئة الإقراء والإفتاء في مساجدها ، ساهموا في ترسيخ لغة التنزيل في القبائل البربرية وتحبيبها إلى النفوس وهم العارفون بأصولها وأسرارها ، وإليهم يعزى الفضل في إدخال شتى ضروب المعرفة المشرقية إلى المغرب الأوسط ودفع الحركة الأدبية إلى النماء والتطور ، فقد شارك عبد الرحمن بن رستم هؤلاء العلماء وهو الإمام الأول المهمة ذاتها ، فكان راعياً صادقاً للآداب والفنون والعلوم يقضي أوقات فراغه في الدرس والتدريس والتأليف له حلقة خاصة في المسجد الأعظم بتيهرت [10] يتولى فيها تدريس علوم الدين واللغة العربية .

البعثات الطلابية.

رغب الرستميون في إنشاء دولة عظيمة في المغرب الأوسط تضاهي الدولة العباسية ، وللظهور في مظهرها تبنوا نهجها في نشر العلم وفضائله ومقاومة الجهل ورذائله ، فأوفدوا البعثات العلمية إلى المشرق شيوخاً وطلبة لأخذ العلم من معينه

والاحتكاك بأساطينه ، فعاد هؤلاء شهباً وارية في اللغة العربية وضروبها المعرفية ومحملين بأنفس الكتب والذخائر العلمية التي كان يستعصى على طالب العلم الوصول إليها ، فزودوا بها مكتبهم المعروفة بالمعصومة والتي أسست لتكون مرجعية معرفية ومذهبية يسهل الرجوع إليها للراغبين في العلم والتزود من نفائسها فكانت تضم نحواً من ثلاث مائة ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون [11] والتخصصات ، والملاحظ أن أغلب هذه المصنفات من نتاج علماء الدولة الرستمية، لأن مذهبهم يفرض عليهم تنشئة الأجيال تنشئة علمية عميقة وتثقيفهم ثقافة عربية رصينة للذب عن عقديتهم ومقارعة الحجة بأختها ، لأن الصراع الفكري بين المذاهب كان لا يفتر.

حرية الرأي والحراك الفكري والنقدي.

سلك الرستميون سبيل العلم منهجاً قويماً في سيرتهم لكونه دعاة مذهب يحتم عليهم أن تكون لهم ثقافة دينية راسخة الجذور ، ولن يكونوا كذلك إلا بتعمقهم في الدراسات اللغوية والأدبية للدفاع عن رؤاهم المذهبية ودحض حجج غرمائهم من بقية الفرق التي كانت تعج بها الحواضر العلمية في المغرب الكبير ، لكل طائفة مساجدها فالمجتمع الرستمي طغى عليه العنصر العربي وتميز بعدم الانسجام في ممارسة شعائره التعبدية لطغيان الطائفة الدينية ، فلكل

فرقة مذهبية مسجدها وعلماؤها وحلق دروسها يجتمعون فيها للمناظرة والمجادلة البينية أو الخارجية.

ولا مناص أن مجرى هذا الصراع الفكري حول المسائل الدينية ،كان يصب في الحراك الأدبي نظماً ونثراً ، لأن تعدد حلقات الجدل والمناظرات الفكرية تفضي حتماً إلى نشاط حركة التأليف للرد على المخالفين ، ومما زاد هذا النشاط أواراً وإخصاباً للفكر أن أئمة الدولة يملكون ثقافة دينية وأدبية ، فقد قعدت على الإمام أفلح أربع حلق يتعلمون عنده فنون العلم قبل أن يبلغ الحلم[1 2]، فضلا عن موهبته الأدبية وملكته الشعرية .

شكلت المجالس العلمية نواة نواد للخلق الأدبي ومنطلقاً لآفاق نقدية في عهد مبكر، لأن كل فكر يحمل في طياته نزعة نقدية، فلا يمكن خلو هذه المطارحات والمساجلات الفكرية من الاحتكام في غالب الأحوال إلى الشعر العربي القديم للوقوف على المآخذ اللغوية والنحوية، أو لإثبات رأي أو إبطال حجة أو فهم نص فقهي الذي لا مشاحة بينه وبين نظيره الأدبي في البناء اللغوي، لأن الفقيه غالباً ما كان أديباً أو شاعراً.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المجالس العلمية والفكرية لم تكن قاصرة على علماء الأباضية وحدهم، بل كانت تغشاها بقية الفرق المذاهب المتواجدة على الأرض المغربية، فتعدد حلقات المناظرة

والمباحثات العلمية التي عرفتها الساحة الرستمية في ظل حرية الفكر والاعتقاد، والتي كانت تعقد في حضرة أئمة الدولة فهم فرسان حلبتها يثرون مواضيعها ويغذونها بالطرح والنقد في مختلف ضروب المعرفة الأدبية والعقدية.

لا ريب أن هذه المساجلات الفكرية كانت تغذي العقول وتسفر عن نشاط حركة التأليف للرد على المخالفين من كل جانب، فتوفرت بذلك سبل الخلق والإبداع في مجالات فن القول شريعة وأدباً، فحسبنا أن الحديث عن الإبداع هو حديث عن الحرية التي هي تلاق وانتقال وتبادل حوار متصل مع الآخر ين.

يثني عبد الملك مرتاض في هذا السياق على بني رستم بتمجيدهم للحرية إذ جعلوها تعمل مع الفتن ما لا يعمله الاستعباد مع الأمن [13] ومثل هذا السلوك الحضاري السابق لزمانه ما كان له أن يتم لولا رغبة بقية الأطراف في هذا السبيل ، ولا يجوز له أن ينفصل عن حركية الإبداع الأدبي وتبلور الخصب الفكري في كثير من المجالات التي لا يمكنها أن تزدهر في ظل الحجر على العقل وخنق الفكر، وفي ضوء هذا المفهوم الحضاري النبيل فسح المجال للتنافس الفكري والتجديد الثقافي والخلق الأدبي والتلاحم بين الثقافتين المشرقية المغربية ، فتهيأت الأجواء لتنشيط اللغة العربية وآدابها باعتبارها الوعاء الذي يصب فيه الفكر على كر الأزمان ومر العصور.

اتخذت الدولة من العلم سلاحاً ومنهجاً في مسارها العام ، ومن مظاهره الاعتناء بالعلماء والمعلمين بالإنفاق عليهم من بيت المال ما يكفيهم ويضمن لهم ولأسرهم حياة كريمة هنية ... ويمكنهم من الرحلة إلى الأقطار للازدياد من المعرفة ويكفيهم لشراء الكتب التي يحتاجونها [14]، في حياتهم العلمية والعملية، وعلى الرغم من ذلك لم ينشئ أئمة بني الرستم بلاطاً أدبياً على غرار ما فعله الأمويون والعباسيون أو الفاطميون والصنهاجيون بعدهم للذود عن حياضهم وتسجيل مآثرهم ونشر مبادئهم والإعلاء من شأنهم على بقية الأمم.

ومما يجسد اهتمام أئمة الدولة بالعلم وبالحركة الأدبية ما أقبل عليه الإمام عبد الوهاب وهو ثاني إمام رستمي، من شراء ما حمولته أربعين جملا من الكتب من المشرق والتي قدَّرها عبد المالك مرتاض بعشرة أطنان لتزويد المعصومة بغية تغذية العقول والأرواح بهذه الذخائر والنفائس التي عززت إدخال ضروب الثقافة المشرقية إلى تيهرت، ونشير في هذا السياق أن الإمام عكف على هذه الكتب فلما أتمها، قال: الحمد لله الذي علمني كل ما فيها من قبل ولم أستفد منها إلا مسألتين أو ثلاث ، ولو سئلت عنهما لأجبت قياساً كما رسمتا فيه ، يستفاد من النص أن المغرب كان في درجة المشرق في مجالي المعرفة والفكر ، وأن رجالاته في المنبت والمنشأ بزوا نظراءهم المشارقة.

الانفتاح على إفريقيا

انفتح الرستميون على بلدان إفريقيا الغربية فغشىيت قوافلهم مجاهلها وقفارها محملة بالآثار الحضارية والثقافية في رحلة انعكاسية من الطرفين ، فساهمت في نشر الإسلام واللغة العربية في هذه الربوع التي استوطنها بعض حملة العلم والأدب فضلا عن التجار، فوجدوا بها شعباً يختلف عنهم عرقياً وسياسيا ًويشترك معهم في العقيدة فاستوطنوها وتناكحوا وتصاهروا وتناسلوا ونشروا مذبهم ، فجهودهم مشكورة وفضلهم كبير في نشر الإسلام والتعريف به في هذه الأصقاع النائية حينها ، فكان للأباضيين الدور الريادي في نشر اللغة العربية في هذه الديار وإخراج أهلها من بدائيتها وتكوين سكانها وشحذ أخلاقهم ومداركهم عبر السنين والحقب المتوالية، وبالمقابل توافد الأفارقة بمختلف اهتماماتهم المادية والثقافية على عاصمة الرستميين التي كانت مقصد الرجال ومبلغ الآمال للتزود من فيضها وعبيق علمائها فتقاربت الشعوب وامتزجت الثقافات ، ومما زادها رسوخاً إقبال الناشئة الإفريقية المحدودة معارفها بلغة العرب وبالعقيدة الإسلامية على تيهرت خصوصاً وبقية حواضر المغرب الكبير ، للأخذ من شيوخها والتزود من معارفهم واقتباس ما كان عندهم من علم وثقافة وليفقهوا اللغة العربية وفنونها التي هي لغة القرآن الكريم الذي لا تتم عبادتهم إلا به، وفي ذلك يقول الشاعر:

فيها المعصومة ينبوع معرفة   لطالب العلم من بيض وسمران
منارة للعلم رفعت للعلم شعلته   ضياؤها شع في غينيا وسودان [5] [1]

يظهر الشاعر فضل عاصمة الرستميين وعظمتها العلمية التي بلغت سمعتها الفضاء الإفريقي، فكانت قمينة بهذه المنزلة الرفيعة في استقطابها لطلبة العلم والارتياد على حياضه الذي لم تقتصر إشعاعاته على حواضر الرستميين ، بل كانت تعاضدها في ذلك طبنة عاصمة إقليم الزاب بالشرق الجزائري ، التي لم تلق بظلالها على البلدان الإفريقية وحدها ، بل قصدتها طوائف وأجناس أخرى عرب وعجم لطلب العلم أو التكسب في مختلف المهن لعظم شأن الدولة واشتهارها بالعدل وحرية الرأي والتسامح الفكري.

الإحالات والهوامش.

[1] محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء، 1985، ص 200.

[2] محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج، ص 202

[3] ابن الصغير: أخبار الائمة الرستميين، تح وتعليق، محمد ناصر، بحاز إبراهيم، دار الغرب الإسلامي، ص 32.

[4] محمد الميلي: تاريخ الجزار في القديم والحديث، الجزائر، 2 / 1989، ص 78.

[5] أحمد المختار، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي إلى بداية العصر التركي، بيروت، 1971، ص 77.

[6] أحمد صفر: مدنية المغرب العربي في التاريخ، تونس، د، ت، ص **360**.

[7]. ينظر أحمد صفر: مدنية المغرب، ص **35**

[8] ينظر أحمد صفر: ص **358**.

[9] أحمد يوسف: السلالة الشعرية في الجزائر، علامات الخفوت وسيماء اليتم، الجزائر، **2004**، ص**8**.

[10] محمد علي دبوز: المغرب الكبير، **3** / ، **332**.

[11] نفسه: ص **330**.

[12] نفسه: ص **136**.

[13] عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، الجزائر، **2005**، ص **51**.

[14] محمد علي دبوز: نفسه ،**3** / **330**.

[15] أبو الحسن علي بن صالح: ديوان، الجزائر، **1984**.